فقير

تأليف: جورج جسنج

ترجمة: أمين روفائيل

القصه القصيرة المنثورة لون حديث من الوان الأدب في الانجليزية . فهي في صيغتها الحاضرة من نتاج القرن التاسع عشر بشكل رئيسي . وقد اسهم في تطويرها واحكام بنائها في هذا القرن كتاب ممتازون ممن مارسوا القصة الطويلة . ومن هؤلاء جورج جسنج ، كاتب هذه القصة . ويبرز في موضوعاته في قصصه وصف البيئة التي تعيش فيها الطبقات الفقيرة وصفا واقعيا اليما . والآثار الوخيمة التي يتركها الفقر في اخلاقها ، وما يعاني من عذاب وشعور بخيبة الرجاء ذوو النفوس الحساسة واصحاب المواهب العقلية والفنية الذين يحيون غربا، في ظروف اجتماعية قاسية تجافي ذوقهم واهدافهم . وتقضي على طموحهم .

المترجم

فى حجرة الاستقبال بعد العشاء تهاوت مسز شارمان البدينة الطيبة النفس فى كرسى ، وسألت وهى تتنهد :

« الى اى حد تحبين السيد تمبرلى ؟ » .

« لطيف جدا ، ولكنه غريب بعض الشىء » .

« اوه ، انه غريب ! غريب الأطوار حقا . اردت ان اتحدث اليك فى شأنه قبل ان ينزل الدرج ، ولكن الوقت لم يتسع . انه صديق لنا منذ زمن طويل . كان هو وزوجى الغريز فى المدرسة معا ـ رفيقين فى هارو ، وهو من اكثر الناس رقة وحنانا ، واخشى ان يكون اطيب من ان يعيش فى هذا العالم ، فهو ينظر الى كل شىء بعين الحسد . ولن انسى جزعه لموت زوجى المسكين ـ انى اتحدث الى مسز نورتج عن السيد تمبرلى يا اذا . »

حاظت بهذه العبارة انتهى المزوجة ـ شابة هادئة لها وجه مسز شارمان الوديع ، وان كان يظهر عليه ما يدل على ذكاء أوفر ـ تأمل وزين من نوع رفيع .

فلاحظت مسز وبر وهى تحدث : « يؤسفنى ان اراه اعتد ما يكون عن ان يبدو بخير » .

« كان دائما شاحب اللون كما تعلمين ، وحياته ... » ثم استانفت مخاطب مسز نورتج : « ولكن يبدو ان اخيرا انه اخذ يعيش عيشة ناعمة وهل تصدقين ـ انه يقيم وحده فى هى من احياء لندن البائسة . اى حى هو يا اذا ؟ »

« شارع فلير فى اسلنجتون . »

« نعم ، معيش هناك ، واخشى ان يكون ذلك فى مسكن ردىء ـ ولابد انه غير صحى ـ كى يعلم بحياء الفقراء ويساعدهم . اليس هذا من اعمال البطولة ؟ ويظهر انه وقف حياته كلها على ذلك ، فلم يعد يراه احد فى اى مكان . واعتقد انه لا يرى الا فى بيتنسا ـ حياة بيلة ! وهو لا يتحدث فى ذلك ابدا ، وانى واثقة ان حديثه فى اثناء العشاء لم يكن فيه ما يبين لك عن هذا الأمر . »

فاجابت مسز نورتج فى عجب : « حقا ، فقد كان قليل الكلام الى حد بعيد ـ وقد ادركت ان اهم ما يشغله هو المصنوعات الخشبية والسلة الخارجية . »

ضحكت مسز وبر : « ذلك هو الرجل ! لقد كان يصنع فى بيشاوره وانا هناك صغيرة الوانا من الاشياء البديعة ، ولا تصدقين كان يلقى على دروسا فى النوازن الدولى . ومن المحتمل انى انه يكتب مقالات رئيسية لا تدرى من امرها شيئا . »

« لا استبعد شيئا على السيد تمبرلى يا عزيزتى . واى غير هذا بعد حياته فى الريف حيث كان له بيت جميل بالقرب من بيتنسا فى بلاكنير ، ولا اعجب الا ان اعتقد ان موت زوجى هو الذى حمله على ترك هذا البيت ، فقد كان شديد التعلق بالسيد شارمان ! وبعد ان مات زوجى ، وتركنا بلاكنير ثم نره قط ـ اوه ، خلال عامين . ثم التقيت به مصادفة فى لندن . وتصورى اذا انه لابد ان هناك علاقة عاطفية كذلك وراءه . »

فقاطعتها الانسة : « ليست انا التى قلت ذلك ، بل انت يا امى العزيزة . »

« انا ؟ حسنا ، ربما ، فالمرء لا يستطيع الا ان يلحظ انه عانى شيئا . وقد لا يعنو هذا رثاء للفقراء الذين وهبهم حياته . رجل رائع ! »

ولما سمعت اصوات رجال عند باب حجرة الاستقبال ، راحت مسز نورتج تتفقد السيد الغريب الأطوار فى شغف . كان آخر من دخل ـ رجل اميل الى الطول ، ولكنه شديد الانحناء عند الكتفين ، نحيل غير رشيق ، يخطو فى غير

ثياب . ويبدو عليه بالعياء . وكانت عيناه بلونهما الرمادي الخاتل ، وتعبيرهما الشديد الوداعة ، تتجولان هنا وهناك من تحت جبهة غائرة في اضطراب ، وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة يشيع فيها انكار الذات . بدا شعره بسقط وعنداه الشيب ، ولكن شاربه كان كثيفا . وكان لكثافته اكثر ملاءمة للامح اشد صرامة . وبينما هو يدخل في الحجرة — او يسترق الخطى اليها — كانت يداه تتقبضان وتنبسطان على نحو يثير الضحك . وقد بدا من جماعة الرجال شيء ليس هو الرثاثة تماما ، بل ما كان يعوزه من رونق ومقال . وسيبين من يمعن النظر ان سترته كانت من طراز مر عليه بعض السنين . كان قميصه نظيفا ، ولكنه لم يحل بمجوهرات من اي نوع ، فلم تكن ترى سوى زر صغير اسود في الصدر ، ودرس من صنف البسيط في الكمين .

انقد طريقه الى ركن ، وهناك رد لو انه قبع وهدأ في سلام وان يكن ذلك في الظاهر ، ولكن سرعان ما انتقلت عينا وبر الى مقعد بجانبه .

« آمل ألا تمانع في المجلسة خلال العشاء يا سيد تمبرلي ؟ » .

« لا ! — اوه لا ! اوه لا ، لا اعتقد ! » .

« ولكن — يظهر أنك لم تستقر على رأي . معذرة اذا قلت اني واثقة انك في حاجة الى التغيير . هل تدري انك حقا لا تبدو بخير . هلا استطيع اقناعك بان تقضي في لوسيون . سيسر روجي جدا — سيبتهج بالحديث اليك في شئون اوربة . اعطنا اليومين — افعل ذلك ! » .

« انت العطف نفسه يا عزيزتي مسز وبر ! واني اشعر بأعمق العرفان ، ولست مستطيعا ان اعبر في شعوري بعظيم برك وودك . ولكني في الحقيقة اكاد اكون قد ارتبطت بأصدقاء اخرين . حقيقة ، اعتقد انه يمكنني القول بأني فعلا .. نعم ، حقا ان الامر كذلك . »

تكلم بصوت رفيع كصوت النساء ، وسحق سليم بكعب نعل قديم واهن ، وبدا تمام كأنه في تعبيره يحتفظ بالدموع ، وهو يلف ويدور في ارتباك بعبارته التي كانت تقصر شيئا فشيئا ، وحملت يداه الطويلتان النحيلتان تصغر احداهما الأخرى حتى ابطأ ظهرهما .

« حسنا ، ما دمت تزمع ترك المدينة . ولكن اشد ما اخافه ان يطيب ضميرك على امرك . وانت تعلم انك لن تنفع احدا اذا مرضت نفسك للملة . »

« هذا حلو ! — ها ، ها ! — اؤكد لك ان هذه الحقيقة واضحة لي ، فللصحة الاعتبار الأول ، وليس ثمة ما يقلل من فائدة المرء اكثر من ... معتلة . اوه ، هذا امر محقق ، امر محقق ! » .

« هناك ما يكفلك اشفاقك على القراء من ارهاق ، ولهذا تأثيره في سلامة الجسم من غير شك . هذا بالاضافة الى جو غير صحي . »

« ولكن اسلنجتون ليست مكانا غير صحي يا عزيزتي مسز وبر ! صدقيني ان في الهواء خاصة نبعث القوة في الجسم في معظم الأحيان . ويجب ان تتذكري اننا على مرتفع عال . ولسنا نود الا شيئا واحدا — نود لو امكننا ان نخمد بعض الشيء ذلك الدخان القار الذي يتصاعد من مداخن البيوت والمصانع ! — اوه ، اؤكد لك ان اسلنجتون فيها كل ما يعود على الصحة بالفائدة من مميزات طبيعية . »

وقبيل نهاية الأمسية عزفت بعض فتيات الوسيلي التي لاح ان السيد تمبرلي استمتع بها

كثيرا ، فراح راسه يميل الى الخلف ، محملقا الى فوق ، وظل فى هذا الوضع متشبثا بقضيب الحظات بعد ان توقفت الموسيقى ، ثم افاق فزعة اخر الامر .

وعندما انصرف من المنزل اردى محطما اشد تحطيما مما يتطلبه ذلك الفصل من فصول السنة ، ووضع فى جيبيه حفنة من السكرة . وقطعة من الكعك الصلب ، عالية الوسيط ، بدا يمشى مستمسكا بحقائبه محطة فى غير نظام مشية شبيهة كما لو كان متجها الى المحطة المجاورة . ولكن المحطة لم تكن هدفه ، ولا السيارات العامة .فقد تابع سيره فى الليل المطر بخطوة ثابتة ، خطوة من اعتاد الرياضة مشيا على القدم ـ من بونتنج هل جيت الى مارتل آرش ، ومن مارتل آرش الى شارع السكورد الجديد ، ومن هناك الى شارع ليونولد الى بلومفيلد . واستمر مستمرا حتى بلغ مرتفعات جيت الصخرى . وبعد منتصف الليل بقليل غير فصيرة ، سلك حارة ضيقة تراءت فى ضوء القمر الشاحب لائحة ولكنها غير جديدة . وبمفتاح معه دخل بيتا صغيرا انبعثت منه رائحة الفراء . أوقد ما تبقى من شمعه وجدها فى جيبه ، وصعد فى السلم مجموعين من الدرج الى حجرة نوم خلفية مساحتها ثمانى اقدام فى سبع ونصف ، وبعد انقضاء دقائق قليلة كان على فراشه وقد اخذ نوم عميق .

استيقظ فى الساعة الثامنة ـ وكان يستلزم حرس بدق فى الحى ـ واردى ملابسه فى عجلة واضطراب ، ولما فتح باب الحجرة وجد على الارض فى الخارج صينية عليها اقل قدر من طعام الافطار : نصف زجاجة من الشاى ،وخبز وزبد . وفى الساعة التاسعة هبط على السلم ، وبعد باب حجرة الجلوس الامامية فى ادب ، فلم له فى الدخول صوت خشن . كان بالحجرة رجل تقدمت به السن وفتاة يؤديان عمل اليوم ، وهو تجليد الكتب .

قال السيد تمبرلي وهو يمشي راسه « سعدت صباحا يا سيدي . سعدت صباحا يا مس سمبر . يوم صاف ! مشرق ! كم يتمنى المرء مثل هذا اليوم ! » .

وقد نفرك يديه كما يفعل الانسان في صباح يوم لاذع الصقيع ، وبابتهاج خافه حياء الخطط ، متمنيا له في قرارة عملا ، حمل السيد تمبرلي باشره جادا مجتهدا ، فقد كان معلم اولياء الصناعة في ذلك الفن ، وكان يعمل بضمير ويظهر من اولى بعض الميل الطبيعي خلال ساعات العمل في اثناء النهار .

الى هذه الحال من الضيق انتهى تمبرلي ، ذلك السيد من اهل باركشير ، الذي عاش في الماضي في بحبوحة وظروف كريمة لا اسراف فيها ، من استثمار ماله استثمارا مامونا المواقب ، والذي تعلم في هارو وتخرج في كمبردج ، وطالب نفسه فكره اختيار مهنه حتى بان له بوجه عام ان فرصة احتراف اية مهنة قد ضاعت . ولما لم يكن به من حاجة الى مثل هذا العناء اخذ الى حياة الكسل البريء بالقرب من البيت الريفي الذي انخذه مسكنا له صديقه السيد تشارمان ، احد اصحاب النفوذ والثراء ، واحد نفكيره ، والذين تمضي هادئة ، نحو الزواج مرة او مرتين ، ولكن نهيا عميقا حال بينه وبين الشروع فيه . وقد عرف آخر الامر انه ولد لحياة الفروسة ، وبهذه الحياة قنع . وما كان اسعد حاله لو انه تبين بمثل هذا الوضوح وجه ضروب اخرى من الاغراء ! ففي غضون سنوات استمع للسيد تشارمان الذي اعتاد ان يتحدث في المضاربات والشركات والارباح الرائعة . ولم يعره هذا كله من اجل نفسه فقد كان لديه اكثر مما يكفيه ، ولكنه فكر في ابنه ، روح مغامر اغليمي غير موفق ، وفي ابنائها الستة ،

وسره ان يعد لهم يد العون ، كشأن الخال الغني في القصص ، حتى يبتدئون في الدنيا حياتهم العملية . وثق بالسيد تشارمان ثقة لا يعرف الشك اليها سبيلا ، وكانت عاقبة ذلك ان وجد نفسه ذات صباح يرتجف على حافة الخراب ، ثم ناكدت الأخبار ، وفقد ماله .

لم يدر من امر هذا شيئا سوى السيد تشارمان ، وقد مرض بعد ذلك بايام قلائل مرض الموت ، وكان نصيبه هنا من الخسارة التي ادت بصديقه الى كارثة فادحة . ولم يلمه السيد تمبرلي بكلمة واحدة لائمة ، وكذلك لم يقل كلمة واحدة لانسان غير المحامي الذي رتب شئونه في هدوء ، والأخت التي اصبح على اسمائها الا يعولوا على معونة خالهم . لم احتفل في غير صمت ، في اثناء غياب جيرانه الأصدقاء ، بعد موت السيد تشارمان .

حينئذ ناهز السيد الصغير الاربعين ، وقد بقي له مقدار من المال لم يحرز على انفاقه ، كان استثماره يمثل له دخلا لا بأس بكفل لعامل عشبة الكفاف . ولما كانت لندن المكان الوحيد الذي يستطيع ان يأوي اليه ، لانها المكان الوحيد الآمن الذي يمكن ان يستتر فيه ، فقد انتقل اليها . ولم يتعلم من فوره في مكافحة الهلاك جوعا بافل الموارد . ففي الأيام الأولى لمحنته بلغ عنه اليأس القصاء ، مأثور الجوع والهوان ، فتناسى شيئا من كبريائه ، وكتب لاحد معارفه يطلب النصيحة والمعونة معا . ولكن ما من احد سوى رجل في موقف السيد تمبرلي يعرف ان النصيحة الطيبة لا تجدي خيرا ، وان النفوذ الاجتماعي لا يغني فتيلا . فلو قد استجدى نقودا لتسلم صكا مقرونا بكلمات العطف لا محالة ، ولكنه كان يرثا عن ذلك نفسه .

التمس الكتب من طرق شتى كان يلهو بها في الماضي وهي المصنوعات الخشبية ، واضاف بعض الرفوف ، فحصل على نصف حاجته في ستة اشهر ، ولكن التطلع الى اضافة جديدة كل عام الى ارباحه القليلة لم يثلج صدره كثيرا .

كان يعيش طوال هذا الوقت بطبيعة الحال في عزلة تامة ، فالفقر اعظم ما يعلم الانسان ، الا ان يكون المرء من طبقة نشأت فيه . فحين يجد رجل دقيق الحس انه لم يعد كفئا لاقرانه الطبيعيين ، ينقطع لنفسه ، ويتبين في شيء من العجب كيف ان الناس لا يترددون في ان يحطوا وجوده . وفي لندن ، فان المرتبة التي تفصل بالزاهدين الذين يختارون الفرقة او يضطرون اليها ، ما اكثر ما بين السيد تصرلي اخوانا في الوحدة وهو يجول في الشوارع والمتنزهات ، او يقطع الوقت في المقاهد ومعارض الصور التي لم تكلفه دخولها شيئا ، فهم النظرة المشرقة التي لاقت نظرته ، وقرأ الوجوه النحيل ، والاجلاد بادراك وعطف المرئ الحسن الذي املاه الزمن . اولئك البشر المزودون لا يتبادلون الاسرار ، وهم يودون لو قد تكلموا ، ولكن كبرياءهم تفرض عليهم التناني ، فيمضي كل منهم في صمت ، ملا صديق ، حتى يجد نفسه ، اذا اسعده الحظ ، في صيدلية او مطعم للفقراء ، وحينئذ يطلق اللسان من عقاله ، وينصب القلب المكتوم على العالم ما شاء من لوم .

حكمه فريسة تلك التي يؤلفها رجل في هذه الظروف . فهو يتعلم اقتصادا شر العجب ، ويتجهز بادراك اذ يكتشف اخيرا انه ما اقل المال الذي يحتاج اليه المرء ليقيم به اوده ، ولو سئل [illegible] في الايام الخوالي الفرد ان عجز [illegible] لعايش باقل من دخل معين امر بديهي . ولكنه يجد ان الانسان يستطيع ان يحيا في يومه بقروش زهيدة ، عرف اسعار ما يتناول من مآكل ، وتعلم القيمة الغذائية في الوان الطعام ، وبان له وقد اصبح ثابتا برغم انفه ان الغذاء الثاني نافع لصحته ، وكثيرا ما الفى على نفسه خطيا بيض بالاوتراد لعادات الجماهير من اكله اللحم . اضطر الى الاقلاع عن الخمر ، ونصح ان يؤدي في المحال شهادته على منفعة في جميع شاذي بالامتناع عنها . في هذا كله وجد الرضا ، ووجد تعويضا عن فقد كثير مما يؤدي به حق نفسه عليه .

وحدث ذات يوم وهو في سبك انطلرا يسلم ما بقي له من ارباح ضئيلة مشيره للاشتراك ، تلك التي كان يقبضها كل ثلاثة اشهر ، ان رآه سيدة وعرفته ، كانت ارملة السيد تشارمان .

« يا للعجب ! ماذا دهاك كل هذا الوقت يا سيد تصرلي ؟ لماذا لم تصل الي اية اخبار عنك ؟ هل كنت هنا ، كما اعتقد احد الناس ، تعيش في الخارج ؟ » .

ضاق صدره لهذا الشد العنيف ، حتى انه رد بطريقة البسمة اكثر كلمة قالتها السيدة « في الخارج » .

لم تتح له الوقت ليرد على هذا ، فقد استمرت تقول : « ولكن لماذا لم تكتب لنا ؟ ما الضير ؟ لماذا سافرت دون ان تقول كلمة ؟ تقول انني انيا لابد ان تكون قد اسأنا اليك على نحو ما من حيث لا ندري ، فسر ذلك ؟ حقيقة لم نكن هناك ما ـ » .

« انا وحدي الذي يستحق اللوم يا عزيزتي مسز تشارمان . اني ... انني صغير ، لكثرة ما يكتنفه من تعقيدات . اوصل اليك ان تعتبري سلوكي الذي لا مسوغ له على انه ـ مجرد شذوذ . »

« آوه ، يجب ان تحضر ازمارلي . هل تعلم ان ابا قد تزوجت . نعم ، تزوجت منذ قرابة عام . وستبتهج حينما برؤيتك ثانية ، فطالما تحدثت عنك . متى تستطيع ان تتعشى معنا ؟ غدا ؟ » .

« هذا سيسعدني ـ سيسعدني جدا » .

« جميل ! »

اعطته عنوانها واقترفا .

ثم يباس السيد تميرلي من استعادة مكانته في عالمه الذي ولد فيه ، ودليل ذلك انه احتفظ بعناية بحلة السهرة والحذاء اللامع اللائم لها . تلك الاشياء التي بدت له من امارات الترف ، كثيرا ما راودته نفسه بصورة البعة ان يبيعها . وقد ارتدى الحلة غير مرة ظانا بضع شلنات قبل آخر الاشهر الثلاثة مما كان يلقى فيها من حرمان ، ولكن فراقه لها ، وهي رمز العزة السالفة ، كان يعني البأس ـ وهو حالة نفسية بعيدة عن قدرته على التجلد السلبي . ذهبت مجوهراته ، حتى الساعة والسلسلة ، خلال عهد بعيد ، فمثل وسائل الزينة هذه قلبي مما لا يستغني عنه سيد في ريه . وقد انحط الآن لتعهد نظره لان لقاءه لمس تشارلز سره بقدر ما طبل خاطره . ملا عليه فرحا انخلع الى فتاة امينة في المجتمع ، فاسرع الى بيته ، وفحص حلة الحفلات في تلهف وتدقيق ، فلم يعد فيها عيبا جسيما . ومع ذلك كان لابد من شراء قميص وبيقة ورباط للرقبة ، ولحسن الحظ كان لديه ما ينفقه في هذا السبيل . ولكن كيف يفسر سلوكه ؟ هل يستطيع ان يعترف بمكان سكنه وبفقره المدقع ؟ لو فعل لكان ذلك بمثابة استعطاف لاصدقائه القدماء ، وهي عذا انكمش مشمئزا ، فليس مما يطيقه رجل مهذب ان يكشف القناع عن ظروف قد تبعث الالم ، اذا كان في وسعه ان يتجنب ذلك . هل كان عليه اذن ان يقول كذبا او ما ينطوي على الكذب ؟ فقول الصدق كله يتضمن توجيه اللوم لزوج مسز تشارمان ـ وذلك ما لم يكن يحتمل التفكير فيه .

وفي مساء اليوم كانت تلك المشكلة ما زالت بلابله ، وقد وصل الى بيت مسز تشارمان دون ان يتخذ قرارا . وفي حجرة الاستقبال وجدت ثلاثة اشخاص ينتظرونه ، الضيفة مع الاسة ، مستر دير ، وزوجها السيد دير . كانت دعوته تمثل لحرارة اللقاء ، واضطربت في نفسه مشاعر كثيرة اشد الاضطراب ، فقد رشده ، وراح يخبط في حديثه خبط عشواء . وكانت نتيجة ذلك قصة غريبة كل الغرابة الى حد انه ما رواها حتى ملكه الذهول من امره .

جاءت تلك القصة جوابا عن السؤال الخفي : اين كان مسكنه .

ابتسم بسلامه وقال : « الآن اسكن حجرة للجلوس والنوم في شارع صغير في اسلنجتون . »

ساد الصمت بعد ذلك ، وتركزت عليه عيون دهشة ومن يدري ماذا كان عساه ان يقول لولا تلك العيون ؟ على كل حال ..

« قلت يا مستر تشارمان انه كان علي ان اعترف بشذوذ في اخلاقي ، وامل الا يصدمك هذا . وجملة القول اني وجدت نشاطي الضعيف للخدمة الاجتماعية ، فانا اعيش بين الفقراء ، وكاني واحد منهم ، لاحصل على ما يستحيل الحصول عليه بطريقة اخرى من المعرفة .

فصاحت الضيفة : « آوه ، ما ابلك ! » .

وخر السيد الكبير صغيره وخرا شديدا ، فاحمر لونه . وقد انتقل اصدقاؤه بالحديث الى موضوع آخر كيلا يؤلموه في شعوره ، ولم يمض لهم حينئذ او بعد ذلك ان يرتابوا في حقيقة ما قال . فقد رآه مستر تشارمان يباشر اعماله

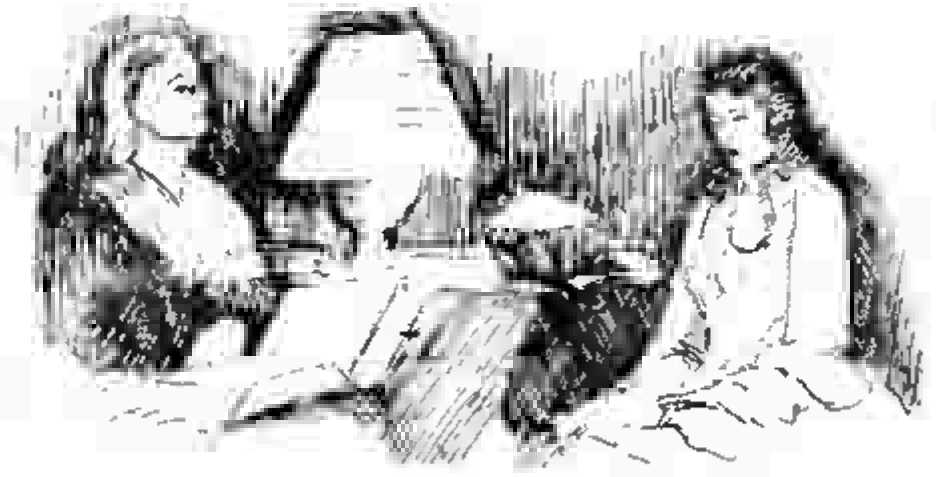

في نفسه انطيرا ، وهو مكان لا يوحي بالخير ،وفضلا عن ذلك عرف الرجل دائما بعض الشذوذ في آرائه وسلوكه . وهكذا اقترف السيد ليسراي خدعة غريبة ، وغدا يتعذر اكتشافه في سهولة ، ولا يستيء الا من اقترفه دون سواه .

مضى نحو العام منذ ذلك الوقت ، وقد التقى فيه السيد ليسراي اصدقاءه بين حين وحين ، ولم يكن يفكر ضمن استعداده القوي النساعات على الاشغال بمصاحبتهم الا ايسر اشارة الى اسلوب حياته . ولكنه وقد اصبح معروفا بانه انطلق عمل الخير في خفية صمدا له ، كان يتعذر ان يعمد الى العودة الى الكذب . صحيح انه لم يتقطع من الندم على الكذبة الاولى ، فاكثر الظن ان مسز وبر ، وهي امراة ثرية ، ربما هدته الى سبيل كريم تكسب منه ورقه . ومهما يكن من شيء فقد استقر رايه على ان يكون محطما للكتب ، وهي حرفة تلائم ذوقه . وقد واتته الشجاعة ذات يوم بعد ان اقام بضعة اشهر في بيت محطم الكتب ،فاتفق معه على ان يجزيه على تعليمه الحرفة بان يعمل له ، حين يصبح اقوى ، فترة دون اجر . وقد افضل الآن على تلك المرحلة ، واحس بوجه عام انه اسعد حالا مما كان في فترة الخمول بما كان يغشاها من خواطر حزينة . وجعل يتطلع الى اليوم الذي تزداد فيه النقود قليلا في جيبه ،ولا يعود يخاف ، خلال اخر اسبوعين من كل ثلاثة اشهر ، تلك الليالي التي كان يقضيها بغير عشاء .

كانت دعوة مسز وبر الى لوسيون الة معظما . لوسيون ! حقا ان اعتباره الاجازات المتعة امرا طبيعيا ، كان في حياة سابقة . تمثل كثيرا من امكنة جميلة عرفها ، ومناظر طبيعية ساحرة كتلك التي نرى في حلم ، وقد حطمها الآن شوارع لندن لندن الليلية في اقاصي الارض ، بعيدة عن عالم الحقيقة كل البعد . ومنذ له سنوات البؤس والشدة الثلاث ، اطول من كل حياة القناعة الوادعة التي سبقتها . لوسيون ! لو ان رحلاتك مراجا خطرت له فكرتها لحي حنينه ، ولكن السيد ليسراي ظل يحتو عليها طوال النهار ، ولم يعبر عن مشاعره باكثر من زفرة خافتة او ابتسامة مشوقة حزينة .

شعر على واجبه ، وقد تمشى في الليلة السابقة عشاء طيبا ، ان ينفق اقل مما اعتاد في وجبات يومه . ولى نحو البساعة الثامنة من المساء ، بعد مشية في الهواء استسلم خلالها للتامل ، عشية كان يشي عليها اكبر الثناء ، دخل الحانوت الذي الف ان يشتري منه حاجاته

الواضحة . ومن وراء الجوان ارمقت له في غير كلفة امرأة ممتلئة ، وشعثاها تنوجان في لغب تعميل آخر . انحنى السيد تمبرلي على عادته الهندية ، ثم قال :

« اسعدني الي معروفا باعطائي بيضة طازجة واحدة صغيرة فضلا . »

فعدلت المرأة : « واحدة فقط هذه الليلة ؟ » .

فاجاب وكأنه يتكلم في حضرة استقبال :

« اشكرك » ، واحدة فقط ، والخبرى لي اذا غيرت من امري ان تكون بيضة وضعت حديثا بالمعنى الدقيق . فانه يخيل الي ان آخر بيضة دخلت هذا الصندوق خطأ ، وهي نقطة يمكن اعتبارها لزحمة العمل . »

فقالت صاحبة الحانوت المثلثة : « ان البيض كله سواء ، ولسنا نتورط في مثل هذا الخطأ . »

« آه ، سامحيني ، ربما تصورت . »

وضعت البيضة والفضة بعناية في حقيبة صغيرة كان يحملها ، وعاد الى بيته . وحين فرغ من وجبته بعد ساعة ، وجلس وقت الغروب مستغرقا في التفكير على مقعد قائم الظهر ، سمع نقر على بابه ، وسلمت اليه رسالة . ارتعدت يده وهو يتفحص الغلاف ، فقلما كانت تصل اليه رسائل . وقد زاد من انفعاله انه عند فض الغلاف كان اول ما راى صكا . فتح الورقة المكتوبة ووجد ان مضمونها هي التي بعثت بها اليه ، وهذا نصها :

« عزيزي السيد تمبرلي — لم اطق بعد حديثنا في المساء السابق الا ان افكر ملك وفي حياة البضعة الجميلة التي تحياها ، وقسمت وازنت بين ما قدر لهؤلاء الفقراء وبين حياتي التي لا يملك احد الا ان يشعر بانها ملاى بالوان المتاع ، وباسباب السعادة التي لست جديرة بها . وعندما التفكير احس حائرا يدفعني ان ارسل لك هبة صغيرة اسهم بها في عملك الخير — ارسلها فرمان شكر وانا على وشك الرحيل لقضاء اجازة طائلة . فضل سخسيم النقود بين اثنين او ثلاثة ممن يشكون اشد الحاجة بين من تصدق عليهم ، او اعطها كلها لشخص واحد اذا رايت ذلك ملائما . وان اعلى لوفيد ان تراك في لوسيرن — وتقبل اطيب تمنياتي . »

كان الصك بخمسة جنيهات . رفعه السيد تمبرلي الى الناقدة وانعم النظر فيه ، وبدت له الجنيهات الخمسة مقدارا ضخما من المال بالقياس الى مستواه الحاضر . تصور ما سيصنع به ؟ لم يكن حذاؤه الذي اصلحه مرتين ليبقى لائقا للاستعمال طويلا . وقد بلغ سرواله آخر مرحلة يمكن ان يظهر به فيها بالقيمة التي يلبسها — وكم كان يتمهدها بالعناية ؟ — كانت هي نفسها التي اقبل بها منذ ثلاث سنوات الى لندن . حقا انه كان في حاجة الى ملابس جديدة من الراس الى القدم . وفي اسلحتون كانت خمسة جنيهات اكثر مما يحتاج الى انفاقه في هذا السبيل . فتى ، خيرني الوسيل الملك ، يحصل ان يكون في حوزته مثل هذا المبلغ ليتصرف فيه كما يشاء ؟ .

تنهد تنهدا عميقا وحملق في الضحضاح من حوله .

كان الصك من النوع الذي لا يصرف الا لصاحب رصيد في مصرف ، وقد تبين السيد تمبرلي لاول مرة في حياته ان مثل هذا الصك قد تكون مصدر متاعب كثيرة لمن تسلمه . كيف كان له ان يصرفه ؟ عرف ان صاحب بيته رجل فظ موسوس ، وايقن ان رفضه اداء هذا المبلغ له ، تلك النظرة التي يصرف كف يوجهها ، سيعرضه لشعور اليم بالهوان . فمتى اذن يستطيع ان يذهبا ؟ لم يكن في لندن احد قط يستطيع ان يلجأ اليه .

مهما يكن من امره ، فاول ما كان ينبغي ان يفعل هو ان يجيب عن رسالة مس وبر . اضاء مصباحه وجلس الى المنضدة المائلة الصغيرة

المصنوعة من خشب الصنوبر ، ولكن قلمه المعدني في المداد غير مرة قبل ان يعد نفسه قادرا على الكتابة .

« عزيزتي مسز وير » .

ثم ظلت وقفته حتى بدا ان النوم قد غلبه ، ثم انتفض وعاد فانحنى يؤدي عمله .

« اسكلد يعرفان صادق الجميل بتسلم هيئك الدارة الكريمة ، النقود ... » ومرة أخرى توقفت يده بقلم دقائق .

« ستستخدم وقتا لرغبتك ، وسأقدم لك حسابا مفصلا للمتعين بها . »

لم يعد الانتهاء بهذا العمر من قبل ، واحس انه عبر عن افكاره اسوأ تعبير ، وان خطه كان سوء تحت عينه ثقيل ، وان انحناء الرسالة كلها جهدا جديدا . وحين فرغ منها خرج واشترى طابع بريد من حانوت قريب واسقط الرسالة في صندوق البريد .

كان خطه من اليوم في تلك الليلة قليلا ، فعندما استلقى في فراشه ، بدأ يتساءل اين يجد اولئك الفقراء الذين يحق لهم المشاركة في هذا الاحسان ، ثم يعرف في حقيقة الامر تلك الطبقة التي دارت بخلد مسز وير . كانت كل الامر من حوله فقيرة في معنى من المعاني ؟ ولكنه تساءل اكان معنى الفقر عندها سواء عنده ؟ هل من الحق ان يمشي رجل او امرأة في ذلك الشارع الغير عامرا الا فورن هو به ... وقد رجح فيما يصور انه كان في ذلك الشارع الرجل الوحيد الذي يحس الفقر ويعاني منه .

استيقظ من تأمل مرهق بفكرة واضحة .. ذكرى احس انها تستبد بعقله ، من الذي سبب سعادته من عباءة المسورين الكريمة ، والوان البؤس التي طالما قاساها ؟ والد مسز وير . ومن وجهة النظر هذه الا يمكن اعتبار صك الخمسمائة الجنيه تعويضا عما لحقه من اذى ؟ الا يجوز له انفاقها في قضاء حاجاته العاجلة دون سواه ؟

ثم اقفلت الخاطرة فجيرة اخرى الى فكرة غريبة ثائرة ، ثم لا تكون مسز وير ـ وهي امرأة حصيفة ـ قد شكت في حقيقة امره ، بل اتتشحها ؟ ثم لا تكون قد قصدت سرا ان تكون النقود له ؟ .

بددت طلائع النهار تلك الفكرة ، ولكنها قوت من جهة اخرى ما تذكر من ان السيد تشارمان كان في حقيقة الامر مدينا له . فلما من فراشه ليصل الى الصك ، وظل مستلقيا ساعة ممسكا به في يده ، ثم نهض وبطريقة آلية ارتدى ملابسه .

ولما فرغ من عمل اليوم عمل بمشى مشيا عنيفا في شارع به حوانيت كبيرة ، واسترعى انتباهه حانوت اخصائي ، فاطال الوقوف امام معروضاته ، ثم قلب في جيبه فيما كان جزءا غير يسير مما بقي له من مال للنهوض بأعباء العيش حتى يحل يوم الارباح ، ثم تخطى العتبة .

ثم ارتكب امرؤ حماقة اكبر من تلك الحماقة التي ارتكبها في شراء روح من الاخصائي ، ثم شراؤه له في حلم ، فكان تكلم ولا يسمع ما يقول ، ويحملق في الاشياء ولا يراها ، وقد ترتب على ذلك انه لم ينتبه الى ان الحذاء الجديد يؤلمه اشد الالم الا حين خلع ستسمه يحمل تحت ابطه حذاءه القديم المريح ، وكان يتر ايضا : يا للسماء ! ما كان اشد اريحه ! لا شك ان ذلك من حبوب الاحذية الجديدة كلها ، ولكنه نسي ، فهو لم يشتر حذاء منذ وقت طويل . وفي الحق انه كان مكدودا خائر القوى ، فاوى الى مضجعه بعد عشاء سريع قليل .

نشبت بينه وبين خطائه الجديد حرب طول الليل ، فتلمس مجروحتين راح يقلع في الشوارع في مدينة الضباع ، بحثا له فيها شخص شرس به في كل منعطف ، ولم يكن هيكلا الحذر الذي استغلق كل مرة في طريقه سوى سر وير . كانت تنعم النظر فيه بين فردتيها ، وتعده بمر بها متعثرا ، وكان أوبر الحذاء صوتا تكلم ، صوتا يصرح في وجهه باسم محبوبه . انكمش وارتعد وتلوى ، ولكنه واصل سيره ، لانه تحمل في يده ذلك الصك الصبي الذي طلب اليه ان يصرفه ، وما من احد يصرفه له . يا لها من لعنة ! .

ولما استيقظ كان ظله ثقيلا ثقل الرصاص ، واما تفكيره فكان واضحا كل الوضوح . ولكن ، خبرني ، ما الذي عساه يذلك الجنون حين انفق مالا لم يكن ليسمح لنفسه بانفاقه على زوج جديد ـ بعيض ـ من الاحذية ؟ كان يمكن ان يحتمل القديم على كل حال حتى اول الشتاء . ماذا دار في رأسه حين دخل الطاحونة ؟ هل فقده .. ؟ وارحمتاه ! .

لم يكن السيد تمبرلي يتعمق في دراسة النفس البشرية ، ولكنه رأى في الحال بوضوح مجيء تلك الأزمة الأخلاقية التي كان يختارها ، ولقد علمته حقيقة جديدة في موضوع الفكر .

هبط في السلم بعد الافطار مباشرة ، وفتح باب الحجرة التي كان يشغلها السيد سجز .

قال مجلد الكتب الذي كان يأكل شريحة اللحم الكبيرة الرابضة ، بفم مملوء ـ « ما الأمر ؟ » .

« ارجو ان تأذن لي يا سيدي في التغيب ساعة أو ساعتين هذا الصباح ، فان أمرا ذا بال يتطلب ان أعنى به . »

فاجاب السيد سجز بالكياسة الطبعية في طبقته ـ « أنك تستطيع ان تفعل ما تشاء ، ولكني لن ادفع اجرا . »

انحنى السيد تمبرلي وانصرف .

انقضى يومان ، ثم انشأ رسالة اخرى لمستر وير ، هذا ما ورد فيها :

« قمت الآن بالقيود التي تفاصلت بارسالها ، واني اسألك بسلطتها . ولكي استوثق من استخدامها استخداما سليما ، اعطيت الصك مقرونا بأوامر واضحة لتسديد في هذا الحي ، وقد ذكرت بان سجل في الورقة المرفقة مذكرة بالمستحقين ، آمل ان ترضيك وتطيب نفسك . »

وتملك ستتساءلين ثالثا لعلت الى قسيس ، ولماذا لم افد من خبرتي واعط سرور مساعدة الفقراء الذين اهتم بأمرهم اهتماما شخصيا . اما الذي وهبت حياتي لرسالة الرحمة هذه ؟ .

الجواب بسيط وواضح . لقد كلفت طيبك .

فانا لا اقيم في هذا المكان مختارا ، ولم انصرف الى فعل الخير . فلست ـ لا ، لا ، لم اكن ـ الا سيدا فقيرا وجد يوما انه فقد ماله في مضاربة خرقاء ، وان حظه أن يسر الى اصدقائه بذات نفسه ، توارى عن الانظار لبعض حياة بائسة . لربما اني اضفت العار الى الكارثة . ولي أخيرا كم كنت قريبا من فعل ما هو اسوأ .

وانى منذ حين أعلم خرقة ستمكنني من غير شك ان اضيف شيئا الى مواردي الزهيدة ، واصبح احس حالا مما كنت حتى الآن . اضرع اليك ان تخبرني اذا استطعت ، وان تعنى منذ الآن .

من هو غير خليق بصداقتك

س . ف . تمبرلي .